En mémoire de Antoun Melhem
8 mars 2012

Antoun, c'était une présence et un engagement. Une présence auprès des Jésuites de Menjez, puis de l'Université. A l'ILO de 1955 à 2003… 2010 même si l'on tient compte de ses passages. Antoun c'était un engagement au service de cet Institut qu'il a accompagné dans ses mutations, dans son déploiement. Pour les étudiants, pour certains enseignants, il était le point de référence indispensable. Pour l'administration de l'Université, il était celui qui sait tout, celui que l'on peut toujours interroger. A l'image d'un ancien secrétaire, M. Track, il pouvait mettre sur la voie ceux qui étaient perdus, ceux qui ne savaient plus où ils en étaient.

Il va de soi qu'à l'Université, chacune de nos institutions a deux visages, celui de la science, de la formation et de la recherche, celui de la présence aux étudiants et du service. A l'ILO, ce dernier visage, c'est Antoun qui l'incarnait. Nous lui en sommes encore infiniment reconnaissants.

René CHAMUSSY, s.j.
Recteur
de l'Université Saint-Joseph

نَصّ الكلمة التي ألقاها البروفسور هنري العَويط

في تكريم ذكرى السيّد أنطون ملحم،
يوم الخميس الواقع في الثامن من شهر آذار 2012،
عند الساعة السادسة والنصف مساءً،
في بهو حَرَم العلوم الإنسانيّة، جامعة القدّيس يوسف، بيروت

تحيّة إلى أنطون ملحم

تتلمَذتُ في معهد الآداب الشرقيّة، شأني في ذلك شأنُ أجيالٍ من الطَلَبة، على كبار العلماء، وفي مقدَّمهم مَن أدينُ له بالإشراف على أطروحتي، العلاّمة الأب لويس بوزيه. ثمّ اغتَنَيتُ بمطالعةِ مؤلّفاتِ زملائي الأساتذة، وبالاستماعِ في جَلَسات المناقشة إلى مداخلاتهم المتألّقة، وفي طليعتهم البروفسور متري بولس. وأعترفُ بأنّي تعلّمتُ الكثيرَ أيضًا من فريقِ الموظَّفين. ومن أجملِ ما تعلَّمت، ما نهلتُه من خلال قراءتي على مدى أربعة عقودٍ ونيّف، في الكتاب المشوّق والبليغ الذي خطّه أنطون ملحم بمسيرته الحافلة، ولوّنه بسيرته المشرقة.

تعلّمتُ من أنطون معنى الانتماء إلى المؤسّسة التي نعملُ فيها. ولعلّي، وأنا أستذكرُ إخلاصَه لجامعة القدّيس يوسف عامّةً، وتفانيَه خاصّةً في خدمةِ معهد الآداب الشرقيّة، لا أبالغُ إن أكَّدتُ أنّه قلّما ارتبط بهما موظَّفٌ كما اقترنت بهما حياةُ أنطون. ولا أذيعُ سرًّا عندما أقول إنّ المعهدَ شكَّلَ لسنواتٍ مديدة تربو على الخمسين، بيتَه وعائلتَه، وظلّ بعد زواجه وبالتلازم مع الأسرة التي أسّسها، فضاءَه الأثير وأهلَه الأقربين.

ويمثّل أنطون النموذجَ الحيّ لابن الريف الذي قَدِمَ المدينةَ في سنٍّ مُبْكرة، وعاش فيها رَدْحًا من الزمن، ولكنّها لم تقوَ على اقتلاعِهِ من جذوره، بل نجح هو في المحافظةِ على طابَعه، وهويّته، وأصالته، وطيبته، وبساطةِ عيشه. وجسّد، في مواقفه ومَسلكه، أبرزَ ما تمتازُ به منجز وأرضُ عكّار الخيّرة، برحابةِ سهولها، وصلابةِ صخورها، وأنَفةِ أبنائها، وحكمة فلاّحيها.

كان أنطون حلوَ المعشر، ودودًا وخلوقًا، ولكنّه لم يُتقن يومًا اللغةَ الدبلوماسيّةَ المنمَّقة، بل اعتمدَ دومًا الأسلوبَ المباشِر، وتسميةَ الأشياء بأسمائها. وكانت له على المسؤولين، بَدءًا من رئيس الجامعة، دالّةٌ خاصّة، تسمح له بمصارحتهم بما يتردّد الكثيرون منّا في الجهرِ به. وكان يملك فنَّ محاورةِ الأساتذة

والطلاّب، ويُحسن بلباقته الفطريّة، وعفويّته المحبّبة، إبلاغَهم بالقرارات الصعبة، وتوجيهَ الرسائل التي كانت الإدارةُ تواجه حَرَجًا في إيصالها.

لم يكن أنطون مدجّجًا بالشهادات، ولكنّه امتلك عينًا بصيرةً، ثاقبةً وناقدة، أهّلته لأن يَغدوَ مستشارًا نصوحًا ومرجعًا يُستأنَسُ برأيه، وخوّلته أن يزِنَ الناسَ ويقيّمَ أقوالَهم وأفعالَهم بكفاءة العارِف والخبير. ولم يكن يرتاح إلى التحليل المعقَّد والشروح المطوّلَة، ولكنّه، بالنُكتةِ اللمّاحةِ والذكيّةِ التي كان من أربابِها، وبما قلّ ودلّ من الكلماتِ والصُوَرِ والأمثالِ السائرة، كان يُجيد إطلاقَ الأحكامِ القاطعة، وكان في الكثير من الحالات، صاحبَ القول الفصل.

ولم يكن أنطون اختصاصيًّا في قضايا الحوار الإسلاميّ والمسيحيّ، وأغلبُ الظنِّ أنّه لم يتبحّر في شِرعةِ جامعتنا، ولكنّه عاش في الأمانة المطلقة لما تدعونا إليه؛ فلم يميّز بين الطلبة، لا على أساسِ أوضاعِهم الاجتماعيّة، أو انتماءاتهم السياسيّة، أو عقائدهم الدينيّة، أو جنسيّاتهم، بل كان كُلاًّ للكلّ، مسلمين ومسيحيّين، عربًا ولبنانيّين، فبادلوه ما خصَّهم به من محبّة، وصار إجماعُهم على تقديره مَضربَ مثل.

وعى أنطون، منذ عهد الأب ميشال آلار، ثمّ في معيّة البروفسور أهيف سنّو وفي ضوء توجّهاته وتوجيهاته، موقعَ معهد الآداب الشرقيّة المميَّز في شبكةِ مؤسّسات جامعة القدّيس يوسف، ووعى أهميّتَه ودورَه التربويّ الرائد، ووعى أبعاد رسالته في لبنان وعلى امتداد جغرافيّة العالَم العربيّ. ولأنّه لم يكن مجرّد موظّفٍ يؤدّي عملَه فحسب ويتقاضى عليه راتبًا، بل كان شريكًا فاعلاً في مشروع المعهد، أسهمَ من خلال المهامّ المختلفة التي اضطلع بها، هنا في بيروت، وفي أثناء الدورات المكثّفة التي كانت تُعقَد في عمّان، في تعزيز حضور المعهد وتوسيع مدى إشعاعه.

في ذلك كلّه، وفي غيرِه الكثير، كان أنطون مُلهِمًا لي وللكثيرين ممَّن عرفوه وعايشوه في أروقةِ معهد الآدابِ الشرقيّة، ومكاتبِ أساتذته، وقاعاتِ مناقشاته. فشكرًا للمعلّم، شكرًا لمعلّمي أنطون.

******

أيّها الأصدقاء،

قامت بين الأب بوزيه والبروفسور بولس والريّس أنطون علاقةُ مودّة، بل أخوّة، وألّفوا معًا ما كنّا نطلق عليه تحبّبًا تسميةَ الثلاثيّ المَرِح. وها إنَّ فرساننا الثلاثة، بعد أن أكملوا بيننا شوطَهم، وترجّلوا تِباعًا عن صَهَوات جيادهم، قد اجتمعوا مجدّدًا في رحاب الملكوت.

لا أعرفُ إن كانوا، حيث هم الآن، قد عادوا إلى سابقِ عهدِهم في ارتشافِ القهوةِ الطيّبة التي كان أنطون يبرع في إعدادها، وفي احتساء أقداحِ العَرق وكؤوس الويسكي التي كانوا نُدماءَها، ولكنّي أعرف يقينًا أنّهم

ما زالوا في كلّ صباحٍ يتداولون شؤون معهدنا وشجونه، ويرعَون، بعيونهم الساهرة وقلوبهم الحانية، إدارته وأساتذتَه وطلاّبه وموظّفيه.

فمِنّا إلى الأحبّة الثلاثة ألفُ تحيّةِ شوق، وعليهم ألفُ سلام!